٤ ـ دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

. . . ولعل أهم ما وصلنا من أساليب الجاحظ في السخر والتهكم، تلك الرسالة التي وضعها في التنادر على صاحبه احمد بن عبد الوهاب الكاتب، وهي الرسالة المعروفة برسالة التربيع والتدوير وقد تعرف أيضا برسالة الطول والعرض، والتوسع والتدوير، ورسالة المفاكهات(١)، ولكنها ذاعت ونشرت بين الناس وطبعت في مصر ولندن بهذا الاسم الأول، قال الجاحظ: «وقد كان احمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا، وكان جعد الأطراف تصير الأصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن معتدل القامة تام العظم؛ وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد، رفيع العماد، عادي القامة عظيم الهامة، قد أعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد؛ وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للأبانة عنها على قدر غباوته فيها؛ وكان كثير الاعتراض لجاجاً بالمراء شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنود مؤثراً للغالبة مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة، والخطرفة عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحالة مع الجهل بثمرة المراء، ومغبة فساد القلوب . . . وكان قليل السماع غمراً، وصحفيا غفلا، لا ينطق عن فكر، ويثق بأول خاطر، لا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب . . . »

فالرجل ـ على ما يصف الجاحظ ـ كان دعياً يبالغ في قدره، ويشتط على نفسه، فيجري في حلبة العتاق وهو كودن، ويطاول السماء وأسبابه لاصقة بالأرض، فكأنه الهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد، فهو يزور على الناس مخبره، ويدلس في حقيقته، ويزعم لنفسه دعوى عريضة لا يد له فيها ولا رجل . . والظاهر أنه بالغ في دعواه وأمعن. وأصر عليها وتهور، قال الجاحظ. «فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والباد، وسكان كل ثغر وكل مصر، بان أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غربه، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به . . . » ولقد استطاع الجاحظ أن يبدي صفحة الرجل حقا، وأن يهزأ به ويبالغ منه، فأخذه بأسلوب لاذع، وغمره بفيض من السخر والتهكم والتعريض، وتندر عليه في منظره ومخبره، وعلمه ومعرفته، وغروره وادعائه، وكذبه وتدليسه، وكل مازعمه لنفسه. وتداستهل الجاحظ القول في براعة فائقة فقال يغمزه وكأنه يدعو له: «أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك، وكرامته لك! قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة، والصنيعة المشكورة، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكالف، ومعانيك التي بها تلهج . . . ثم أخذ الجاحظ يناقشه في طوله وقصره، وعرضه واتساعه، وتربيعه وتدويره، وقده وخرطه . . . ثم أورد عليه شيئاً من آراء الناس عنه واختلافهم فيه، وحسدهم له!! ثم ابتدأ فقال: فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب. فياشعراً جمع الأعاريض، وياشخصاً جمع الاستدارة والطول، مايهمك من أقاويلهم. ويتعاظمك من اختلافهم؟. وهل في تمامك ريب حتى يعالج بالحجة؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة؟ وهل لك خصم في العلم، أو ند في الفهم، أو مجار في الحكم، أو ضد في العزم؟ وهل يتبلغك الحسد أو يضرك الغبن، وتسمو إليك المنى، أو يطمع فيك طامع، أو يتعاطى شأوك باغ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك، أو يأنف شريف أن يقصر دونك، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك؟ وهل غاية الجيل إلا وصفك؟ وهل زين البليغ إلا مدحك؟ وهل يأمل الشريف الا اصطناعك؟ وهل يقدر الملهوف إلا غياثك؟ وهل للغواني مثل غيرك، وهل للدانج رجز إلا فيك؟ وهل يحدو الحادي إلا بذكرك؟ وهل على ظهرها جميل حسيب، أو عالم أديب، إلا وظلك أكبر من شخصه؟! وظنك أكثر من علمه، واسمك أفضل من معناه، وحلمك أثبت من مجراه، وصمتك أفضل من فحواه؟ وهل في الأرض حليم سواك؟ وهل أظلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك؟ وهل حملت النساء أجمل منك؟ فمن يطمع في عيبك بل من يطمع في قدرك؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تعثر باسمك، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لمرك، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ولا غيور إلا وقد شقي بك! وكم من فتاة معذبة قد أفرج قلبها الحزن، وأجهد عينها الكمد، . . . فأصبحت والهة مبهوتة، وهائمة

(١) جمع الجواهر للحصري ٢١٢.

مجهودة ، بعد ظرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغنج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج ! ! وليس حسنك أبقاك الله بالذى تبقى معه توبة أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهنهه زجر أو يهذبه خوف ! ! ولكنه شيء ينقض العادة ، ويفسخ المنة ، ويعجل عن الروية وتنسى معه العواقب ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن حجاج (١) »

ثم أمعن الجاحظ فى التنادر على الرجل ، وراح يتفنن فى السخر من حسنه وجماله وخلقه وتركيبه ، وبعد أن اقتحمه بنظرة إجمالية على نحو ما قدمنا لك أخذ ينظر إليه فى كل عضو من أعضائه فقال : « وما ندرى فى أى الحالتين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك. فأما كفك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ! وما ندرى آلكأس فى يدك أحسن أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله أم المخصرة ، أم العنان الذى تمسكه ، أو السوط الذى تعلقه ؟ ! وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن وأبها أجمل وأشكل ؟ آللثة أم مخط اللحية ، أم الأكليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع أم القلنسوة ؟ ! وأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ؛ وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تنفوه به أحسن ، وأى الذى يبدو منه أجمل ؟ آلحديث أم الشعر ، أم الاجتماع أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؛ وعلى أننا ما ندرى أى ألسنتك أبلغ ، وأى بيانك أشفى ؟ أفلكأم خطك ، أم لفظك أم إشارتك أم عقدك ؟ وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ... وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ، ومعوجاً شختا ، وأنت أبداً قمر بدر تم غمر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السرار ويتشاءم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعا كما يكون ضرا ، ويقرض الكتان ويشحب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت أبداً دائم البين ظاهر السعادة ، ثابت الكمال شائع النفع ، تكسو من أعراه وتكن من أشجيه ... »

وانطلق الجاحظ بعد ذلك يندد بالرجل فيما يدعيه لنفسه من طراوة الشباب ونضارة الأهاب على أنه كبير السن قد شابت شواته وتخدد أديمه ، وسلخ من العمر غابته . وتجد الجاحظ ظريفاً طريفاً إذ يقول : « جعلت فداك ما لقى منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخز ؟ ! كانا يتباهان بطول العمر ويبتهجان ببقاء الحسن ، وبأن الدهر يحدث لهما الجدة إذا أحدث بجميع الأشياء الخلوقة ، فلما أربى حسنك على حسنهما ، وعمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهانا بعد الكرامة . . فيا عقيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويافوه الهيولى كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبد ، ويا صفى المستقر ، ويا صاحب المسند ، حدثنى كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومنذ كم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟ وما حبس غراب نوح ؟ هيهات ! أين عاد وثمود ؟ وأين طسم وجديس ؟ وأين أمم ووبار ؟ وأين جرهم وجاسم ؟ أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق ! ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ، وأى هذه الأودية أقدم: أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة ، أم جيحان أم سيحان أم مهران ؟ ... أبقاك الله ! وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التعبد والاستكانة ، فاذا سمعتنى أقول : أطال الله بقاءك فهذا المعنى أريد ، وإذا رأيتنى أقول لا أخلى الله مكانك فالى هذا المعنى أذهب . وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور الزيادة والنقصان إياك ، جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، تقيك طول البقاء ، ومع دليل الفناء ، فأنت علة للتضاد ، وسبب للتنافى ! فاياك أن تظن أنك قديم فتكفر ، وإياك أن تنكر أنك محدث فتشرك ، فان للشيطان فى مثلك أطماعا لا يصيبها فى سواك ، ويجد فيك عللا لا يجدها فى غيرك ، ولست - جعلت فداك - كابليس وقد تقدم الخبر فى بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفنائه ، ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحق من عذر ، وأولى من ستر ، ولو ظهر لى لما سألته كسؤالى اياك وإن كان فى التجاذب مثلك فهو فى النصيحة على خلافك ، ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش والارصاد ، وأنت على أية حال شكل ، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقى إلى أب ويجمع بيننا دين »

ويزداد الجاحظ ظرفاً وملاحة ، ويشتد تهكما وسخرية إذ يدخل

---

(١) لنصر بن حجاج هذا حكاية فى كتب التاريخ ، فقد زعموا أن عمر سمع فى هدأة الليل امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ام هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فغضب وطلب نصر بن حجاج فاذا هو فتى وسيم الوجه اجمل ما فيه شعره فأمر ان يحلق لتتقى فتنته فكان افتن الناس وهو حليق فأمر بنفيه من المدينة

على صاحبه من ناحية علمه، أو قل من ناحية جهله! فقد أورد عليه كثيراً من الخرافات والمحالات وتلقف له جملة مما هو شائع عند العامة من الأكاذيب والأخبار، وجعل هذا كله من باب المسائل ورؤوس المعضلات، فأخذ يعابيه بها ويسأله عنها: فسأله عن الشقناق والشيصبان، ومن قيرى ومن عيرى ومن جلندى، ومن أولاد الناس من السعالى، ومتى تخزعت خزاعة، ومتى طوت المناهل طى، وما القول فى هاروت وماروت، وما عداوة ما بين الديك والغراب، وما صداقة ما بين الجن والأرضة، وما علة خلق الخنزير؟ وكيف اجتمع فى الذبابة سم وشفاء، وكيف لم تقتل الأفعى سمها، وكيف لم تحرق الشمس ما عند قرصها، ومذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية، وبعد كم بطن أسود الزنجى وابيض الصقلبى، وما عنقاء مغرب، وما أبوها وما أمها؟ وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى؟ ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى. إلى آخر ما تلقفه الجاحظ من الطرائف وبلغ به مائة مسألة كلها من هذا الطراز وعلى هذا النمط، ولعل من المعلوم أنه لم يكن يطمع فى الاجابة من صاحبه بل إنه ليقول له: «وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً؛ فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافة وما فيها محال، وما فيها صحيح وما فيها فاسد، فألزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى وابتد بتلقى التشبيه والقول بالنداء، واستبدل بالرفض الاعتزال، وأن أتنكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقريع والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم!»

ولا شك أن الجاحظ قد ابتدع رسالته هذه ابتداعاً، وأتى بها على غير مثال سابق فى الأدب العربى، ولا شك أنها قد جاءت قوية رائعة تعلن عن فن الرجل فى بابها، واقتداره على أمثالها. ولقد كان الجاحظ على اعتزاز بها غاية الاعتزاز، فأشار إليها بالأكبار، وأحال عليها بالأقدار (١)، واقتبس منها فى بعض ما كتب. وقد تأثر بها بعض الكتاب فحاول الخوارزمى أن يحذو حذوها فقلدها فى رسالة كتبها إلى أحد أصحابه الشعراء يعرف بالبديهى فبلغ أربا، ولكن دون ما بلغ الجاحظ بكثير. ثم جاء البديع الهمذانى فانتهج الطريق فى بعض مقاماته إذ كان يهاجى بعض أصحابه ولكن يظهر أنه نظر إلى الخوارزمى أكثر مما نظر إلى أبى عثمان فسلبه كثيراً من تعبيراته، وخرج من التعريض إلى الشتم، ونزع عن التهكم إلى السب، وبدل التلميح بالتصريح، والمزح بالتجهم، وهذا كله غير ذلك كله، فتعرف الصنفين، وافرق بين الطريقين...؟

« للكلام صلة »

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الحيوان ج ١ ص ١٥٠ ط الساسى

شقيـــة

للسيد عمر أبو ريشة

حثثت خطاى الحمر عن هيكل القدس
وفى حمأة الأرجاس كفرت عن رجسى
وما استعذبت نفسى الشقاء وإنما
وجدت عزاء النفس أقتل للنفس
دعونى أعب السم من أكؤس الملا
وأقضى على تلك البقية من حسى،
كفانى نفضت الكف من يانع المنى
وبعت صباى الغض بالثمن البخس!!
وما من ضحايا النار، حسناء كاعب
عليها جلال الحسن فى العرى واللبس
تمشت ونفحات المحاجر حولها
ومن خلفها الكهان خافتة الجرس
ولما ذكت فى المذبح النار تمتمت
مصليّة والضرس يقرع بالضرس
وزجّت بها عريانة فتفجرت
جراح وقطرات الدما صبغة النفس
وفى كل جرح فوهة من جهنم
تولول كالريح المؤججة البأس
بأهلك منى عند فضّ مآزرى
على مذبح الشهوات للصبح الممسى!!
يؤرقنى الماضى فأنشر طرسه
وألسنة الآلام تقرأ فى الطرس
وأهجس والأشباح تعتام ناظرى
فيرتد إشفاقاً فأقصر من هجسى
وأزجر دمعى أن يثور وزفرتى
فلا دمعتى تسلى، ولا زفرتى تنسى
تغرّ ابتساماتى عيون أخى الهوى
وخلف ابتساماتى جراح من البؤس
طلعت على الأيام والطهر حارسى
يحيك على عطفىّ جلبابه القدسى